مجلة المجمع العلمي

النزعة العنصرية في الفكر السياسي الغربي الحديث

الدكتور أنس ابراهيم العبيدي
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم التاريخ

الملخص :

يتناول البحث النزعة العنصرية التي تسود بعض المجتمعات والأقوام . ووقف الباحث عند الفكر السياسي الغربي الحديث ، وذكر أشهر من نادى بالنزعة العنصرية وانتهى الى أن الدراسات أثبتت من خلال العرقية عدم صحة ما ذهب اليه العنصريون ، وأن ليس هناك من تمايز بين الاجناس البشرية ، وإن وجدت بعض الفروق فهي نتيجة للفوارق وراثية ، أو اثر الظروف الاجتماعية والبيئية وغير ذلك من الأحوال .

المقدمـــة :

لا يخلو موضوع النزعة العنصرية في الفكر السياسي الاوربي الحديث من اهمية ، بل انه ينطوي على الاهمية كلها ، فعلى الرغم من أن النظريات العنصرية تعد جزء من الماضي لا سيما القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين حيث أوجها ، إلا أن آثارها ما زالت ماثلة للعيان في مناطق كثيرة من العالم ، ويبدو أنها ترسخت في عقول وجدتها المكان المناسب لتنمو وتترعرع فيها ولا تفارقها أبدا.

ان فكرة سمو الحضارة الاوربية على باقي الحضارات ليست بالجديدة لقد كان الاوربيون يتفوقهم بانهم مسيحيون ليس غير ، وبالضرورة فان إله المسيحيين سيفضل عباده ، لا سيما اولئك الذين يعبدونه طبقا لشعائر معينة ، وسيعمل الإله على تحسير القابليات المتوارثة التي ستجعل من السهل على عباده الازدهار والتقدم والسيطرة على العالم . كما ان رب المسيحيين حسب رأيهم سيحرص على جعل المحيط الذي يحيا فيه المسيحيون أكثر ملاءمة من المحيط الذي يعيش فيه الوثنيون ، والوثنيون في نظرهم كل من كان على غير ديانتهم ، لذا فان مناخ اوربا ليس بالحار ولا البارد جدا ، وليس بالجاف ولا بالممطر ، لكنه معتدل لطيف[1]. وبكلمة أخرى ، سادة اعتقاد أن الشعوب الاوربية عموما ، تمتلكون تفوقا حضاريا ، وتفوقا جسديا ، وتفوقا محيطيا بيئيا أيضا[2]. وبالامكان ارجاع هذه الفكرة ، ملاحظة ان اية قضية لا تأتي من فراغ بل بنتيجة تحد ما ، فكرة التفوق المسيحي الى الصراع الذي كان محتدما بين أكبر ديانتين سماويتين المسيحية والاسلام خلال الحروب الصليبية التي كانت مستعرة على جبهتين في شرقي البحر المتوسط وغربه .

وبما ان أوربة لم يمثلها شعب واحد بمعنى الكلمة ، كما كان ينظر إليه في العصور الوسطى أوج الكنيسة والوطنية المسيحية ، بل شعوب

James M. Blaut, The Theory of Cultural Racism. http:/ www.mdcbowen.org. P.2.

David Frawley, The Agyan Dravidian Divide. http:// www.hindubooks.org.P.1

مختلفة متصارعة ، بدأت أساطير تبحث عن أصل كل شعب وتصورت في نهاية العصور الوسطى في اسبانية وفرنسا والكلتزة وايطالية والمانية وروسية ، وحاولت كل ثقافة منها البحث عن اختراع بكورة مزعومة في ضوء الكتاب المقدس من بين أحفاد النبي نوح ، وحاولت تصوير كل ما هو فريد بها في إرثها الخاص وترابطه بما ورد بالكتب المقدسة ، او ربما تجد صلة لها مع أثينا وروما ، او صلات مع القوى التي هيمنت على اوربة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية[2]. وقد تفاوتت هذه المحاولات التنسية بين شعب اوربي وآخر ، فبينما حاول الالكثر ربط انفسهم بالفلسطينيين القدماء ، جهد الالمان على ترسيخ اعتقاد بأن أفضل شعوب العالم الانجيلي كانت ألمانية منذ البداية حتى إنه قبل أن لسان آدم وحواء كان ألمانيا. وهذا ما فسر حسب وجهة نظرهم ، بقاء اللغة الجرمانية وصمودها في وجه اللغة اللاتينية[1]

ومن الملاحظ إن النظريات الدينيه العنصرية Religion Theory of Racism كانت لها أهدافا استعمارية. إذ أن الله حبا الاوربيين بمنطقة عدوها موطنهم الحضاريcultural hearth ، أرض الانجيل Bible land. واعتقدوا أن جنة عدن واقعة في بقعة ما حول منابع نهر دجلة في جبال ارمينية ذات المناخ المعتدل المسحي ليس بعيدا عن جبل اورارت الذي يعتقد

---

(1) Richard H. Popkin, The Aryan Myth: A History of Racist and Nationalist Ideas in Europe. Translated by E. Howard. New York, 1974. The Journal of Modems History, vol. 47, Number 4, Dec. 1975, P. 719.

(2) Blaut. Op.cit., P. 3.

أو سفينة نوح رست عليه ، وليس ببعيد عن جبال القوقاز التي عرفت بأنها موطن الجنس القوقازي الابيض ، الواقعة كما أشير دائما ، في النطاق الجغرافي نفسه الذي يضم أثينا وروما[1]. ولم تكن هناك أدنى فكرة عن تطور الحضارات المبكرة ، فالانسان منح تعلم الزراعة وبناء المدن والحضارة في أيام سفر التكوين Genesis ، وكل أحداث تاريخ ما قبل المسيحية حدثت بين البيض في منطقة صغيرة من سطح الارض تقع بين روما وبلاد الرافدين اما بقية العالم فلم يكن مسكونا[2]. وقد هاجر البشر من هذا الموطن بكل الاتجاهات وبذلك استوطنوا آسيا وافريقيا . وخلال مجرى الهجرة او سفر الخروج Exodus انحط degenerated البشر الذين هاجروا الى آسيا وافريقيا بايولوجيا وتحولوا الى جنس ليس بالابيض ، وفقدوا فنون الحضارة على الرغم من أن السيويين ظلوا يحتفظون ببعضها. كل هذا عند اوربا العصور الوسطى حقائق تاريخية ، وقد نتج عن ذلك كله فكرة مفادها أن الجنس الابيض كان ومازال متفوقا لأسباب جلية[3].

أما الديانة اليهودية التي انبثق منها المسيحية ، فمن النظرة الاستعلائية الاستعمارية واضحة في كتبهم ، فمثلا ورد في نصوص التوراة ان الله ابراهيم كلمه الرب في الرؤيا "في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر

---

1. Ibid., P. 3.
2. Popkin, Op.cit., P. 719.
3. Ibid., P. 720.

الوارث . وجاء فيه بأن الرب قال "واقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في اجيالهم عهدا ابديا لاكون الها لك ولنسلك من بعدك ... واعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك كل ارض كنعان ملكا ابديا"[9]. وقد تضمنت التوراة افكارا عنصرية بسغرب المرء كيف يمكن عدها شريعة منزلة لا منعت بني اسرائيل من ان يتعاملوا مع اهل الارض التي يقطنونها ، وانهم يعتقدون ان صورة الانسان تتجسد بهم فقط ، وان الله خلقهم وحدهم على صورته وسطلهم على جميع مخلوقاته[10] . وورد في سفر التكوين "لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء وبهائم الارض ، وكل الدابات الدابة على الارض"[11] ، ولا ندري ايقصد بالدابات البشر من غير اليهود. ولا يجوز لبني اسرائيل الزواج من غيرهم ، فقد جاء في سفر التكوين "فدعا اسحق يعقوب وباركه وأوصاه فقال له لا تأخذوا نساء من بنات كنعان"[12]. وفي التلمود تأكيد مبدأ الاستعلاء والتفوق العنصري اليهودي على بقية شعوب الارض ، وجعل الناس عبيدا لهم كونهم شعب الله المختار ، وانه اصطفاهم من دون سواهم من شعوب الارض . كما تتجسد في التوراة انعزالية الشعب اليهودي وحقه في جميع خيرات الارض التي وهبها له الاله الخاص به من دون الاخرين ، فالتلمود

---

(9) الكتاب المقدس ، العهد القديم . سفر التكوين ، الاصحاح الخامس عشر ١٨.
www.http://st-takla.org/pub_oldtest/01_gen.html

(10) الاصحاح السابع عشر ٧-٨ .
ينظر : الاصحاح التاسع .

(11) الاصحاح التاسع : ٦ و ٧.

(12) الاصحاح الثامن والعشرين : ١

صدور اليهود بأنهم من طبقة ارفع من طينة باقي البشر ، وان عبرهم حتم لهم كغيرهم من الحيوانات غير العاقلة[٢٣].

إن مثل هذه الافكار كانت راسخة ولقرون في عقول الاوربيين سواء أكانوا مسيحيين أم يهودا ، ولم يستطع اولئك محوها او التخفيف من غلوائها بل أن ظروفا جديدة طرأت على مجرى التاريخ ساعدت على تعريزها هذه المرة على أسس جديدة .

بحلول القرن السادس عشر وبداية تزعزع الكنيسة جزئيا نتيجة لحركة الاصلاح الديني Religious Reformation Movement – الذي كان للألمان الحظ الأوفر فيها لما قيل أن الاسباب الرئيسة التي دعت الالمان تبؤ الدور البارز في الحركة هي أصالة اللغة الالمانية ومقاومتها للغة اللاتينية – فتنازعت الثقافات الاوربية في محاولاتها لاستخلاص أصلها بين عالم الانجيل وبين الجهود المبذولة في إضفاء الصفات الخاصة بجموعهم بعيدا عن ذلك العالم[٢٤]. وبذلك بدأت البذور الأولى للقومية التي تطورت الى عنصرية استعلائية فيما بعد ، وأول عمل اتسم بالنفس العنصري انبثق من اسبانية في محاولتها تمييز المسيحيين الجدد الذين تحولوا عن الاسلام واليهودية بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ ، عن المسيحيين القدماء الذين عدوا الاسبان الحقيقيين المنحدرين من أصل القوط الغربيين[٢٥].

---

[٢٣] سهيل حسين الفتلاوي ، الصهيونية حركة استعمارية استيطانية توسعية ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص ٣٣

[٢٤] Popkin, Op.cit., P. 720.

[٢٥] Blaut, Op.cit., P. 3.

في الوقت الذي شرع فيه تشكيل العنصرية (الايديولوجية) ، انبثقت أفكار خطيرة لدى منظري اوربة تهدف إلى إعادة النظر بأصول الجنس البشري وتنوعه نتيجة لبدء حركة الاستكشافات الجغرافية التي تبعتها حركة الاستعمار ، إذ أن اكتشاف أقوام غير معروفين حتى ذلك الوقت في الأمريكتين واستراليا قاد الى انتعاش تأملات عدت في تلك الحين هرطقية تماما حول أصل البشر ، والى تشكيل فرضية شكلت صدمة حقيقية للمعتقدات السائدة عرفت بفرضية ما قبل الأدمية Pre-Adamite hypothesis كان أول من نادى بها اسحاق لا بيريير Isaac La Peyrère عام ١٦٥٥ ، الذي نفى تحدر البشر من أصل واحد وادعى وجود اجناس شبه ادمية قبل آدم المعروف هي أقرب الى الحيوانات غير العاقلة منها الى البشر ، وذلك أنكر ما ورد في الكتب السماوية . إن هذه الفرضية التي كانت واحدة من بدع الفكر الغربي الحديث ، أصبحت في عصر الاستنارة Enlightenment Age قاعدة لفكر عنصري (انثروبولوجي شامل) ، وزودت الفكر بالأساس الذي استند إليه فصل سلالة آدم من القوقازيين عن أقوام الملونين ، الافارقة والامريكيين واستراليين ، وفصل سلالة آدم الساميين ، عن الوربيين الحقيقيين المبدعين Real and Creative Europeans [١٦].

إن اهتمام عصر الاستنارة بعلم الانسان science of man تضمن في جزء كبير منه تفسير اختلافات النوع البشري . وعمل أفضل العلماء

---

(١٦) Arnold Toynbe, The Study of History, New York, 1961, P. 51.

(١٧) Popkin, Op.cit., P. 720.

كانت الردة على هذه الاشكالية ، وضعين أسسا لنظريات عنصرية خطيرة ، إذ فلسفة الاستنارة من أمثال مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥) وموبرتيوس Maupertuis (١٦٩٨-١٧٥٩) أن للمناخ أثرا حاسما في عملية التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى (البايولوجي) . فالحرارة المرتفعة تتضب معين القوة والشجاعة عند الرجال ، في حين يدعو المناخ البارد باعتدال الى انبعاث القوة في الجسم والنشاط في العقل ، ويتيح للانسان المقدرة على القيام بأعمال كبيرة وشاقة تمتاز بالجسارة والاقدام . وهكذا نتج المناخ الحار جدا في افريقية عن نظام سياسي متأخر متمثل بالاستبدادية الذي أعاق حرية الافراد[٨] ، وان البعد الذي يفصل افريقية عن مركز الحضارة العالمي حجب عنها الاشعاع الحضاري الاوربي ، كل ذلك أدى الى انحطاط تلك الشعوب (بايولوجيا) من حالتهم الأصلية السوية التي خلقوا عليها (بيضا) وتحولوا بالتدريج الى اجناس ملونين[٩] .

هذه الافكار الاستعلائية سادت اوربة على مدى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التالي وبروز القومية عززت تلك الافكار ، اذ مما لا شك فيه ارتباط النظريات السياسية التي تقوم على مفاهيم الدولة أو النزعة العنصرية وتبرير سيطرة جنس على آخر ارتباطا وثيقا بالنزعة القومية ، ويمكن القول بأن النزعة القومية هي القوة الدافعة وراء النزعة العنصرية . لقد سعى دعاة العنصرية الى بلورة الفكرة التي مفادها أن العنصر الأسمى السيد له الحق في

---

(٨) Patrick Harries, Origins and Deconstruction of Racial Theories. http:// www.Images. uct.ac.za/ P.2.

(٩) J.A. Hobson, Imperialism: a study, London, 1936, P. 227.

عرق العناصر الأدنى وحكمها بادعاء التفوق على ضحاياه ، والى تبرير مركز السادة قياسا بالتبعة على أساس سمو متأصل ، ومسئولية في تمدين العالم ، وحق إلهي في الحكم [٢٠]. وقد أسهم مشاهير الفلاسفة في تطوير هذا الفكر خلال القرن التاسع عشر .

من بين أبرز أولئك الفلاسفة الالماني يوهان كوتليب فيخته Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢-١٨١٤) الذي أدى دورا قياديا جريئا كان له بعيد الأثر في تاريخ الفكر السياسي الاوربي عموما والألماني خصوصا. حيث استغل معركة يينا ١٨٠٦ لجعلها منبرا يصلح من خلاله الأمة الألمانية ، المصطلح الذي أكده هو الأمة الذي لم يكن قبله أمرا بارز المعالم والحدود خارج نطاق الأمة المسيحية[٢١]. وقد لاقى فيخته نجاحا منقطع النظير في ذلك ، إذ أصدر خطبه في أثناء احتلال نابليون بونابرت لما عرف فيما بعد ألمانية ، مؤكدا فيها أن الشعب الألماني وحده هو الشعب الحي ، وهو وحده الذي حافظ على لغة حية[٢٢]. لقد اظهرت خطابات فيخته اليقظة الأولى للنزعة العنصرية الالمانية فكان وقعها كبيرا في نفوس الالمان لاسيما وهم يرزحون تحت نير الاحتلال الفرنسي في اعقاب هزيمة مذلة ، حيث قال "إن الشعب الالماني شعب سابق على الشعوب الاخرى ، وهذا

---

[٢٠] ادوارد بيرنز ، افكار في صراع النظريات السياسية في العالم المعاصر ، ترجمة عبد الكريم أحمد ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٦٣.

[٢١] يوهان غ. فيخته ، خطابات الى الأمة الالمانية ، ترجمة سامي الدروبي ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٢.

[٢٢] جان توار سانتة ، الفكر الالماني من لوثر الى نيتشه ، ترجمة نسيم شيخ الارض ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٢.

يعني أنه نقي من كل اختلاط تاريخي وليس ناتجا مشتقا ولذلك الحضارة ... إن الشعب الألماني هو الشعب المطلق الوجود"[٢٣]. ويضيف فيخته "إن الشعب باختصار هو الذي لا يستمد حقيقة من التاريخ ، بل هو الذي يولد وجوده وتاريخه عن طريق فكره ووعيه بذاته ... إن جميع الشعوب الانسانية لا تشارك بنصيب واحد من الروح الكلية ، وليست مستعدة استعدادا متساويا لتلقي وعود الحياة الابدية"[٢٤].

لقد رأى فيخته إن الشعب الالماني شعب أصيل ، لأنه نقي من اي مزيج خارجي. وإن الشعوب الاخرى لا تحيا حياة حقيقية ، بل حياة مستعارة منقولة منعزلة ، حياة انفصلت عن المنابع الأصلية ، فأصبحت شبه ملحق للانسانية. وهناك شعب واحد شعب مختار حافظ خلال التاريخ على اتصاله بالمنابع الاصلية للانسانية وهو الأمين على الحياة الأبدية"[٢٥]. لقد حاول الفيلسوف الالماني من خلال طروحاته هذه عزل الشعب الالماني عن الشعوب الاخرى ، حفاظا على نقاوة العنصر[٢٦] ، وبذلك يعد من دون منازع خالق النزعة العنصرية الألمانية.

ثم يبتعد فريدريك هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠-١٨٣١) كثيرا عن ذلك الطرح ، إذ وصف الدولة البروسية بأنها

---

[٢٣] نقلا عن : المصدر نفسه ، ص ١٠٤.

[٢٤] يوهان فيخته ، المصدر السابق ، ص٨١ .

[٢٥] عثمان أمين ، رواد المثالية في الفلسفة الغربية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣١٢.

[٢٦] ينظر: فخته المصدر السابق ، ص ٨٤.

مثال الدولة الاكثر توافقا مع روح العصر ، وهي مثل الحرية الأعلى[٢٩] . وفي هذا نلمس النزعة العنصرية عند هيجل. وعلى الرغم من إنكاره نظرية الشعب المختار . إلا أننا نجده يمجد الأمة الألمانية حيث يقول: "إن انبعاث الأمة الجرمانية كان بوحي من المسيحية... وإن العمليات الثقافية قامت بها شعوب أوربية لا سيما الأمة جرمانية"[٣٠]. ويضيف "إن الحضارة الجديدة هي الحضارة الجرمانية المسيحية"[٣١]. وحسب رأي هيجل فالشعب الألماني هو الشعب المتميز بين الجرمان لان له خلقا قوميا وروحا قومية[٣٢]. لقد أثرت على هيجل موروث نظرية الشعب المختار اليهودية ربما من دون قصد ، وورث إلى جانبها نزعة عنصرية مع اختلاف بسيط . ذلك ان اليهود يدعون بأنهم الصفوة على جميع الشعوب الأخرى على مر الزمان . في حين يجعل هيجل تفوق الجرمان للدور الحضاري الايجابي الذي قدموه للبشرية ، بخلاف تفوق اليهود العائد بنظرهم الى سبب عنصري (بايلوجي) استعلائي يقرن التفوق بالعنصر اليهودي لما يجري فيه من دم متميز[٣٣].

---

[٢٩] عبد الرحمن بدوي ، المثالية الالمانية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص١٣١.

[٣٠] هيجل ، محاضرات في فلسفة التاريخ ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، ج١ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٥٥.

[٣١] المصدر نفسه ، ص ١٥٥.

علي حسين الجابري ، فلسفة التاريخ بين هيجل وبيتشه في المصادر العربية ، مجلة الكوفة العلمية ، ع٥ ، السليمانية ، ١٩٨٠ ، ص ٩٥.

[٣٣] عبد الوهاب محمد احمد المسيري ، نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١١٢.

وجاء فردريك نيتشه Friedrich Wilhelm Nietzsche (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ليضيف شيئا للنظرية العنصرية. ونيتشه هو ذلك الفيلسوف الذي فقد ايمانه بإله آبائه ، وأمضى بقية عمره يبحث عن إله جديد ، اعتقد أخيرا أنه وجده في السوبرمان (الرجل الأفضل)[٣٢]. إذ يقول في كتابه زرادشت "موتي هي الآلهة جميعا ونريد أن يعيش السوبرمان... أني سأخبركم من هو السوبرمان ، إنه الانسان الذي ما ينبغي التفوق عليه"[٣٣]. لقد استهدف نيتشه خلق نوع بشري جديد تمثل بالسوبرمان ، "ذلك الفرد المتفوق الصاعد من حمأة العائدين من الناس ، يدين بوجوده الى الاستنسال المتوخى والتربية"[٣٤]. ويرى أن بالامكان خلق السوبرمان بواسطة الانتخاب البشري وحسب ، "فيالها من حماقة ان نسمح للأفراد الارقى بالزواج عن حب ، فنسمح للابطال بالزواج من الخادمات وللعباقرة بالاقتران بالخاطئات . ويرى نيتشه أن الحب ليس أمرا استنساليا ، لذلك يقول "يجب أن لا يسمح للعاشق اتخاذ قرارات تؤثر في حياته بأكملها ، وينبغي أن نعد عهود العشاق باطلة ، ويجب أن يتزوج الأفضل الفضلى لأنه ليس من وراء الزواج التناسل فقط بل ينبغي أن يكون الهدف منه التطوير والتحسين... والطابع المميز للسوبرمان هو حب الخطر والنزاع شريطة أن يكون لهاتين المزيتين غرض وقصد ، وإن

---

[٣٢] ليس عوض ، دراسات في النظم والمذاهب ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص١١٦.

[٣٣] نقلا عن : ويل ديورانت ، قصة الفلسفة ، ترجمة أحمد الشيباني ، بيروت ، ص ٧١٩.

[٣٤] المصدر نفسه ، ص ٧٢٣.

الحيوية والعقل والكبرياء هي التي تخلق السوبرمان[٣٠]. إن فلسفة نيتشه تبدو كأنها أداة انتقاء تفصل بين الأعراق القوية القادرة وحدها على فهم ضروراتها ، وبين الأعراق الضعيفة المنهارة غير القادرة على إنجاب السوبرمان[٣١]. ويظهر أن فكرة الجنس لم تكن واضحة المعالم ومشوشة لديه ، فلم يفكر بشكل واضح بالأمم والشعوب حين وضع نظريته في السوبرمان ، بل يرى إنه فرد عبقري من طراز نابليون ، فيقول "كيف يمكن أن نجد أمة في مجموعها ، فحتى بين الاغريق كانت العبرة بالأفراد ... ولا يهمني إلا صلة شعب من الشعوب بنشأة الانسان الفرد"[٣٢] ، ذلك الفرد الخارق القادر على قيادة المجموع.

والحقيقة إن سمة العنصرية كانت بينة في نظرية السوبرمان ، هذا إذا ما علمنا أن نيتشه كان معنف بالداروينية الاجتماعية التي تمجد بقاء الأصلح في صراع البقاء الذي لا هوادة فيه[٣٣]. غير أن تلك العنصرية نراها جلية بين ثنايا كتابه الذي حمل عنوان "مولد المأساة من روح الموسيقى" ، إذ يذكر "إن الروح الألمانية انبعثت قوة لا تمت بأية صلة الى الأوضاع البدائية ... وأعني بهذه القوة الموسيقى الألمانية... ابتداء بباخ فبيتهوفن فشاعر" ، فالروح الالمانية قد تأملت مدة طويلة جدا... فلتتحقق الأمة

---

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٧٣٧.

(٣١) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٧١.

(٣٢) لويس عوض ، المصدر السابق ، ص ١٤٢.

(٣٣) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨.

الغربية من أن غرائزها سليمة وأصلح من تلك الحضارات الأخذة بالانحطاط[٣٩].

الى جانب أفكار أولئك الفلاسفة العنصرية كانت تسير جنبا الى جنب اكتشافات علمية غاية في الخطورة صبت في بوتقة العنصرية وصاغت تلك الأفكار في قالب ظن إنه علمي صرف ، كانت الغاية منها كما ذكر فهم التاريخ من منظور عنصري[٤٠]. وبانتهاء نهاية القرن الثامن عشر كان مثقفو اوربا ، من علماء كان بعضهم رجال دين في السابق ، يجوبون الحقول والغابات في المناطق المعزولة محاولين فهم محيطهم البيئي عن طريق تصنيف النباتات والحيوانات والصخور الى فئات categories وأجناس species وانواع مختلفة ، ونجم عن ذلك علم التصنيف اللينياوي Linnaean نسبة الى عالم النبات السويدي كارل فون لينيه Carl von Linnè (١٧٠٧-١٧٧٨) . ولم يكتف العلماء بتصنيف الكائنات غير العاقلة بل تعدوها الى البشر[٤١].

إن النزوع الى وصف أجناس البشر المختلفة وتحديدها قاد الى تساؤل عام دار حول من أين جاءت تلك الاجناس ، وقد تمسك الكنيسة بأن كل البشر منحدرون من ادم وحواء ، غير أن أوصوانا معارضة دعت إلى أن الأفارقة والهنود الحمر والاوربيون منحدرون من أجناس مختلفة ، وعرف أولئك بدعاة تعددية الأجناس Polygenists الذين عملوا على توسيع الهوة

---

[٣٩] دورانت ، المصدر السابق ، ص ٧٠٨ .

[٤٠] Pobkin Op.cit., P. 720.

[٤١] Harries, Op.cit., P. 3.

الحيوية والعقل والكبرياء هي التي تخلق السوبرمان[٣٥] . إن فلسفة نيتشه تبدو كأنها أداة انتقاء تفصل بين الاعراق القوية القادرة وحدها على فهم ضروراتها ، وبين الاعراق الضعيفة المنهارة غير القادرة على إنجاب السوبرمان[٣٦] . ويظهر أن فكرة الجنس لم تكن واضحة المعالم ومشوشة لديه ، فلم يفكر بشكل واضح بالأمم والشعوب حين وضع نظريته في السوبرمان ، بل يرى إنه فرد عبري من طراز نابليون ، فيقول "كيف يمكن أن نجد أمة في مجموعها ، فحتى بين الاغريق كانت العبرة بالافراد ... ولا يهمني إلا صلة شعب من الشعوب بإنشائة الانسان الفرد"[٣٧] ، ذلك الفرد الخارق القادر على قيادة المجموع.

والحقيقة إن سمة العنصرية كانت بينة في نظرية السوبرمان ، هذا إذا ما علمنا أن نيتشه كان معتقداً بالداروينية الاجتماعية التي تمجد بقاء الأصلح في صراع البقاء الذي لا هوادة فيه[٣٨] . غير أن تلك العنصرية نراها جلية بين دفتي كتابه الذي حمل عنوان "مولد المأساة من روح الموسيقى" ، إذ يذكر عن الروح الألمانية انبعثت قوة لا تمت بأية صلة الى الأوضاع البدائية ... وأعني بهذه القوة الموسيقى الألمانية... ابتداء بباخ فبيتهوفن فشاعر . فالروح الألمانية قد تأملت مدة طويلة جداً... فالتحقق الأمة

---

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٧٣٧.

(٣٦) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٧١.

(٣٧) لويس عوض ، المصدر السابق ، ص ١٤٢.

(٣٨) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨.

بين الاوربيين وباقي الشعوب . لكنهم أحجموا بادئ الأمر في حكمهم على قدرات الاجناس المختلفة وقابلياتها[٤٢].

والحقيقة أنه استحدث في ذلك الوقت علم جديد قائم بحد ذاته عرف بالانثروبولوجي Anthropology اختص بدراسة اجناس البشر وأنواعهم ، أول من نادى به هو العالم الطبيعي يوهان بلومنباخ Johann Friedrich Blumenbach(١٧٥٢-١٨٤٠) الذي صنف البشر عام ١٧٧٥ الى خمسة أجناس على أساس لون بشرتها وهم الجنس القوقازي أو الأبيض ، والجنس المنغولي أو الأصفر ، والجنس الأثيوبي أو الأسود ، والجنس الأمريكي أو الأحمر ، والجنس الملاوي أو السي[٤٣].

وفي خضم مجرى تطور النهضة العلمية في القرن التاسع عشر ، نشأت طرق جديدة لتفسير اختلاف الجنس بدأت تصبح مقبولة كإثبات لدعم النظريات العنصرية المختلفة ، كانت الملاحظات الشخصية المباشرة وقياسات الجسد والمقارنات والتجارب واحدة من تلك الطرق. إذ بدأ الانثروبولوجيون يخضعون الجسد البشري الى فحوصات دقيقة صارمة محاولة منهم جعل دراسة الانسان مطابقة الى ميثودولوجيا Methodologyأو منهجية العلوم الطبيعية الحديثة[٤٤]. وقد قاد هذا الى ظهور حقول علمية جديدة (على انها اثبتت عدم صحتها فيما بعد) مثل علم الفرينولوجي Phrenology وكرانيولوجي Craniology اهتما بقياس حجم

---

(٤٢) Ibid., P. 3.

عادر شكري ، النازية بين الايديولوجية والتطبيق ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٤٩.

(٤٤) Harries, Op.cit., P 4.

الجمجمة والدماغ وشكلهم . وظهر علماء الفسيوكنومي Physiognomy والانثروبومتري Anthropometry وهما إحدى تلك العلوم الزائفة او الدعية Pseudo-Sciences حيث حاولا إيجاد قوانين عنصرية تختفي خلف ملامح الوجه ، واحجام الاجسام ، وهيئة الشعر[٤٥]. وبذلك ظهرت تقسيمات أخرى انضوت تحت تقسيمات يوهان بلومنباخ الخمسة تراوحت بين ثلاثة الى أكثر من مائة تقسيم ، منها ثلاثة رئيسة فيما يخص الوجه والرأس ، وهي الرأس المستطيل dolichocephalic ، والرأس المتوسط mesocephalic ، والرأس المدور brachycephalic[٤٦]. كل هذا قاد الى الاكتشاف بأن الرجل الابيض حسب زعمهم يملك الدماغ الأكبر ، تليه المرأة البيضاء ، يتبعهما بقية الأجناس[٤٧]. لم يدرك علماء (انثروبولوجيا) القرن التاسع عشر إنه لا توجد بين حجم الدماغ والذكاء البشري ، إذ لا يستخدم الانسان إلا جزءً يسيرا من دماغه في التفكير ، وإن حجم الجمجمة وبالتالي حجم الدماغ يحددهما المناخ وحرارته لا سيما كمية اشعة الشمس التي يتلقاها الانسان لا سيما في أشهر عمره الأول وسنيه[٤٨]. بدلا من ذلك فإن ملاحظاتهم رسخت ما كانوا مقتنعين به مسبقا ، في أن

---

(٤٥) Ibid., P. 2.

(٤٦) Dobzhanky, Races: Nature and Origins, The Encyclopedia Americana, The International Reference Work, Vol. XXII, New York 1961, P. 105.

Hames, Op.cit., P. 4.

(٤٧) ممدوح حقي ، العنصرية والاعراق ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٦٩.

الرجل الأبيض هم أذكى من غيرهم ، وأن الجنس الأبيض بتطوره وإنتاجه أذكى من بقية الأجناس[٤٩].

من المفيد أن نذكر هنا أن بعض الحقول العلمية في منتصف القرن التاسع عشر مثل الفرينولوجي ، لم تكن نتاجا لجهد علماء شاذين ، ومع أننا نستغرب اليوم من ادعاءاتهم ، فإنهم في ذلك الوقت دُعموا من معاهد علمية دولية لها صيتها ، من أمثال (الجمعية الانثروبولوجية الباريسية Anthropological Society of Paris) وإن ادعاءاتهم قد وجدت طريقا لها في الانسكلوبيديات التي عاصرتها[٥٠].

ومن اجل إلقاء نظرة قريبة على اكتشافات ، إن صح التعبير ، أولئك العلماء ، نأخذ على سبيل المثال نتاج دراسات العالم الطبيعي اكاسيز Jean Louis Rodolphe Agassiz (١٨٠٧-١٨٧٣) الذي هاجر من سويسرا الى الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٨٤٦ وأصبح رائدا في علم الحيوان (والجيولوجيا) ، وكان قبلها قد استغرق مدة في علم الفسيولوجي الذي قاده الى ملاحظة وجود اختلافات ثابتة أكيدة بين البشر ، دفعته الى تأييد تفسير أصحاب تعددية الأجناس لمشكلة تباين الاجناس ظاهريا. لذلك قال أن أجناسا بشرية مختلفة قد نشأت في بقاع مختلفة من العالم كل على حدة ، وبانتقال تلك الاجناس الى مناطق اخرى لم تستطع التأقلم فيها ما أدى الى انحطاطها (بايولوجيا). واعتقد أن الاجناس البشرية أنواع مختلفة (بايولوجيا) لا يمكنها بأي حال التكاثر من خلال تمازجها أو تزاوجها مع

---

(٤٩) Harries. Op.cit., P.4.

(٥٠) Ibid., P.5.

الاجناس المختلفة miscegenation مثل الحمار والفرس وناتجهما البغل ، فإن بإمكان أفراد الاجناس المختلفة إقامة علاقات تناسلية لكنها غير قادرة على استيلاد نوعها نفسه[٥١] وهذه الفكرة ماثلة ومترسخة الى يومنا هذا حيث يسمي الاوربيون الشخص المولد من ابوين احدهما ابيض والآخر اسود بـ مولاتو mulatto وهي كلمة اسبانية هي نفسها بالانكليزية والفرنسية تصغير الاول mule اي البغل[٥٢] وهو الخلاسي بالعربية .

لاقت ادعاءات اكاسيز تأييدا جيدا وقد نشر مساعده كارل فوكت Carl Christoph Vogt (١٨١٧-١٨٩٥) وهو عالم طبيعي ايضا نتائج دراسات لأكاسيز وصاغها بعنصرية أكبر ، حاول فوكت إثبات أن الانسان أقرب الى الحيوانات الرئيسة منه الى الملائكة كما تؤمن الكنيسة . لقد كان فوكت متطرفا جدا ، إذ صنف سلما (تايلوجيا) للكائنات الحية واضعا الانسان الجرماني على قمة السلم . وفي قعره وضع "المخلوق" الافريقي ، الذي تأتي بعده القردة مباشرة. واعتقد فوكت أن الجنس الجرماني جنس قوي لأن عرقه لم يختلط بالعروق الأخرى ، في حين أن الانكليز اقل نشاطا نظرا لكونهم نتاجا بين تزاوج الجرمان والساكسون والدانيين والنورمان[٥٣].

---

(٥١) ibid., PP. 5-6.

(٥٢) See: Webster's New Collegiate Dictionary, Cambridge International Dictionary of English, Oxford Advanced Learner's Dictionary

(٥٣) Harries, Op.cit., P. 6.

ويسوق صامويل كارترايت Samuel Adolphus Cartwright (١٧٩٣ - ١٨٦٣) في كتابه المثير "الاجناس البشرية من ذوات الأفكاك البارزة" Natural History of The Prognathous Species of Mankind الذي نشره في ١٨٥٧ حجتا تسير في تأكيدها وتدعيمها للفروق الجسدية بين الابيض والسود تتمثل إلى دعوى لوجود فروق جسدية وذهنية عريضة. حيث ذكر أن ملامح الزنجي المثالي أقرب الى "المخلوقات القردية simian والبهيمية brute " منها إلى الانسان الأبيض. وإن لون الزنجي القياسي هو اللون الأسود الدهني البراق ، وإن الألوان الأفتح التي يحملها بعضهم ليست متأتية من تمازج جنسي مع البيض ، لكن نتيجة لإصابتهم بمرض ما أو جراء انحطاط جيني genetic degeneration [٥٤]. وفي مجرى عملية التبيض او القصر bleaching process الناجمة عن مرض او انحطاط يفقد الزنجي لون عينيه ، والزنجي المنحط عرقيا تجده يعاني من عشو ليلي. ولا يملك الزنجي شعرا حقيقيا "فمثل كل شعرة محاط بحراشف مثل صوف الخراف ، وهذا الشعر كالصوف له قابلية التلبد ، والشعر الحقيقي لا يمتلك مثل هذه الخاصية. ويشبه الزنجي الحيوانات في حاسة الشم ، فبامكانه تحديد مكان الأفعى بتلك الحاسة وحدها. وكل حواسه أكثر حدة ، لكنها أقل رهافة وتمييزا من حواس الأبيض . ويذكر كارترايت هنا أن كتب التاريخ الطبيعي مثل الانجيل "تثبت وجود ثلاثة انواع من الأجناس البشرية تتمايز في الأقل

---

(٥٤) Philip W. Commings, Racism, The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 7, New York, 1967 P. 60).

Natural History books, like the Bible, "proves the existence of at least three distinct species of genus man"

ويستطرد إن هذه الاجناس تختلف في الغرائز ، والشكل ، والعادات ، واللون. ولدى الجنس الابيض قابليات لا يملكها الجنس الاسود . الأول يتمتع بعقل حر ، والثاني يمتلك عقل عبودي ، الاول كائن being مفكر ومتأمل ، والثاني مخلوق creature يكاد خال تقريبا من كل أنواع ملكات التأمل والتفكير ، وبالتالي غير قادر على التطور أو حماية نفسه[٢٥].

واظن أن كارترايت قد فاق كل عنصريي العالم عنصرية ، غير أن هذه النزعة في إظهار إن الانسان الافريقي لا يرقى إلى كونه انسانا بل هو حيوان فعلا . هي النزعة التي عمت من اجل تبرير فكرة العبودية التي كانت تدر ربحا وفيرا على المستوطنين الأوربيين في مستعمراتهم في امريكية الشمالية ، ولم تعدم هذه النزعة سببا لبقائها بعد منع تجارة العبيد وتجريم العبودية وهو الخشية التي انعكست في الكثير من النظريات العنصرية التي عززت الخوف من الانقراض النهائي للجنس الابيض الاوربي في أمريكة الشمالية جراء ارتفاع نسبة الولادات بين الافارقة والاسيويين وبزها لمثيلاتها الاوربية فضلا عن التزاوج بين عامة البيض والاجناس الأخرى[٢٦].

كان هذا هو الدافع الرئيس وراء فكرة نقاء الجنس Pure Race فبالاضافة إلى الخوف من تفوق الاجناس الاخرى على البيض في العدد ، وجد العديد من الافراد لا ينتمون الى التصنيفات العديدة التي أشرنا إليها من

---

(٢٥) Ibid., P. 60.

(٢٦) ادوارم بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤-٣٦٦.

التي تم ابتكارها حرفا ، لذا عن مثل هؤلاء قيل بأنهم مولدون من تمازج جنسين أو أكثر . وهكذا افترض وجود اجناس نقية ، كانت قائمة في وقت ما من الماضي ظل بعضها يحتفظ بصفاته متناثرين هنا او هناك في الارض ومن بينهم الجرمان[٥٧].

ولمزيد من الارباك أضيفت اللغات الى ذلك الخليط لتصنيف الجنس ، على الرغم من أن اللغة لا يمكنها بأي حال من الأحوال ، أن تكون شيئا موروثا (بايلوجيا) ، فظهرت بذلك تعبيرات من أمثال الجنس الآري Aryan Race والجنس الانكلو - سكسوني Anglo-Saxon Race وتصنيفات (بايلوجية) شبيهة اخرى لا تمت الى العلم والمنطق بصلة[٥٨].

من ثم جاء كتاب العالم الشهير تشارلس داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) "في أصل الاجناس" On The Origin of Species الذي نشره في عام ١٨٥٩ فألهب النقاش والجدل حول أهمية الجنس ، وقد فسر بعضهم لا سيما هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣) الفيلسوف الانكليزي ، أفكار داروين بشأن الانتخاب الطبيعي او اختيار الطبيعة natural selection أن الجنس البشري مثل الحيوان والنبات كل مشتبكا في صراع من أجل البقاء. وقد عنى ذلك لبعضهم أن الافارقة السود كانوا (بايلوجيا) أضعف من الاوربيين الذين يملكون جنسا متفوقا ، الحق الطبيعي في اجتياح افريقية واستغلالها . وقد صور فرع هذه المدرسة سلبيا "بوجيبة اي تحسين الجنس ، التي

---

(٥٧) Dobzhansky. Op.cit., P. 108.

(٥٨) Frawley. Op.cit., PP. 1-2.

تنبأت بالانقراض التدريجي للانواع البشرية الضعيفة او أجناس بسرها في طريقها الى الفناء[٥٩]. وهذا ما لمسناه في فكر نيتشه ونظرية السوبرمان الذي سيولد عن طريق تكرار تزاوج الفضلاء بالفاضلات .

مما لا شك فيه أن الفكر العنصري التي امتازت به اوربة في القرن التاسع عشر كان يصب في مصلحة الحركة الاستعمارية ويهيء لها الجو الفكري الخصب الذي يمكنها ان تترعرع فيه وتزدهر ، ولا يمكن ان يختلف اثنان في هذا القرن بأنه بعد بحق عهد الامبريالية الاوربية. لقد أمن جل الاوربيين جراء ذلك الجو الفكري بأنهم ينتمون الى جنس متفوق وإن ديانتهم المسيحية هي ديانة متفوقة مقارنة بالديانات الاخرى التي عدوها برابرية[٦٠].

لقد شعر الاوربيون أن من واجبهم تنصير الشعوب غير النصرانية بأية وسيلة وإن تطلب الامر استخدام القوة والارهاب والرشوة ، ويقول أحد الباحثين المحدثين "يجب أن نذكر بأن هذه العقلية وآثارها ما تزال مستعملة في عدد من البعثات التبشيرية في الهند في يومنا هذا "[٦١]. لقد نظر الاوربيون الى الشعوب غير النصرانية كأنهم الاطفال الذين هم بحاجة الى تعلم الانضباط والتدريب كي يغدوا متمدنين. وسيطرت النظرية العنصرية على مفكري هذا العهد ، تلك النظرية التي فسرت على اساس مصطلح اللون بصورة رئيسة . وبما أنهم ينتمون الى الجنس الأبيض القوقازي المتفوق فإن

---

(٥٩) Hames, Op.cit., P. 7.

David Frawley, Racial Theories, http:// www.hindubooks.org, PP. 1 2.

(٦١) Ibid., P. 2.

ن متهم بالتطبع استعباد الملونين[٦٦]. وإن لم يكن استعبادا بالمعنى الفج للكلمة فهي رسالة يحملها الرجل الابيض في تمدين الأمم المتأخرة غير القادرة على مساعدة نفسها او حكم نفسها بنفسها وما نتج عن نظرية عبء الرجل الابيض White Man's Burden التي نادى بها الروائي الانكليزي جوزيف كبلنج Joseph Rudyard Kipling (١٨٦٥-١٩٣٦) وهي تصور طبيعي لنظريات تفوق الجنس الأبيض[٦٧]. وأوضح اثر لها نظام الانتداب احدى ابتكارات عصبة الأمم الذي صنف شعوب الارض من مستعمرات المعسكر المنهزم في الحرب العظمى إلى ثلاث اصناف[٦٨].

إن نظرية تسلط الجنس الأبيض لتفوقه (بايولوجيا) وفكريا على الاجناس الملونة ، كانت فكرة أقل تعقيدا بكثير عن فكرة ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر ، مفادها إن ذلك التفوق لا يتحدد بين جنس وآخر فقط ، بل انه موجود في الجنس الواحد نفسه ، وصح ذلك بالتحديد على الجنس القوقازي الابيض المتفوق ، فظهرت تعبيرات اريد لها أن تصف أجناسا جديدة من أمثال الجنس الآري ، والتيوتوني Teuton ، والنورديكي Nordic ، والانكلوسكسوني[٦٩]. ولما كانت نظرية تفوق الجنس الأبيض نتاجا طبيعيا فكريا للحركة الاستعمارية الأوربية ، فان النظرية الجديدة كانت انعكاسا

---

(٦٦) Harries. Op.cit., P. 7.

(٦٧) حامد الاصور ، جذور الفكر العنصري في اوربا ، اسلام اون لاين /مساحات ثقافية ص ١.

(٦٨) ينظر ميثاق عصبة الامم ونص الانتداب في:

(٦٩) Dobzhansky, Op.cit., P. 108.

مصدر وحدة السياسية والاحتقار عند بعض الاقطار الاوربية لا سيما فرنسا والمانيا. فالأولى كانت تعاني من صراع اجتماعي مرير بين الطبقة الارستقراطية الغنية والطبقة الكادحة الفقيرة وصراع سياسي ايضا للاستحواذ على السلطة . أما في الثانية فكانت تعاني بعد توحيدها ، من وجود أقليات إثنية كانت تبغي الاستقلال بنفسها كالسلاف والماكيار والبولنديين[٢٦].

إن النظرية العنصرية الحديثة ترجع الى حد كبير الى ابتكار الروائي الارستقراطي الفرنسي ارثر دي جوبينو Joseph Arthur Comte de Gobineau (١٨١٦-١٨٨٢) الذي نشر مؤلفه "مقال عن عدم التكافؤ بين الاجناس البشرية" An Essay on the Inequality of the Human Races في اربعة اجزاء في المدة (١٨٥٣-١٨٥٥) ، حاول من خلاله اثبات أن كل ما هو نبيل وعظيم ومفيد من أعمال الانسان على هذه الارض انتجه جنس واحد حكمت فروعه كل البلاد المتمدنة . وقال إن هذا الجنس هو الجنس الآري الذي يضم الاغريق والرومان ومعظم شعوب شمال أوربا وغربها ، واسمى من يمثله هم الجرمان الحديثون[٢٧]. وقد ميز جوبينو بين خصائص الجنس الابيض الخلاقة النشطة ، وخصائص الاجناس الملونة المتخلفة . ليخرج بنتيجة مفادها إن رسالة الجنس الابيض تتمثل في خدمة الانسانية . ثم بيّن فروع الجنس الابيض ، وأشاد بالعنصر الآري الذي إليه يعزى مدنيات العالم اجمع . ويقول إن أية مدنية انسانية تخلو من التأثير

---

(٢٦) Ibid., P. 109.

(٢٧) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣.

الأري لا يمكن ذكرها أو التفكير فيها[٦٧]. وقد نعت السود أو الزنوج بأن لهم صفات حيوانية تتضح في شكل الحوض ، وقدراتهم العقلية متلبدة كما أنهم فرديون فوضويون ، والجنس الأصفر بأنه نزاع الى الشيوعية ولا يحلمون او يضعون النظريات وقابلياتهم البدنية ضعيفة ، غير أن الجنس الأبيض اصحاب ذكاء متقد ، ومثابرون ، لديهم ميول متأصلة الى الليبرالية ، والبرلمانية ، والفدرالية ، والامبريالية الخيرة[٦٨]. ولكل من الاجناس الكبرى ، وكذلك كل فرع من فروعها ، سمة خاصة بها لم تستطع العوامل المناخية والجغرافية والاقتصادية محوها. ويقول جوبينو ، إن الحضارات تنهار بسبب اختلاط دماء الجنس المحلي بدماء الجنس الغازي عن طريق الزواج بالمهزومين ، وإن امتزاج الدماء هو السبب الأساسي في الانحدار القومي[٦٩]. لذلك حذر جوبينو بأن الاوربيين قد يفقدوا "تفوقهم العرقي" اذا ما هم تمازجوا مع الشعوب من ذوي البشرة الداكنة من سكان ضفاف البحر المتوسط وافريقيا[٧٠].

ومن ثم طرح المفكر والمؤرخ الفرنسي وكستين تيري Jacques Nicolas Augustin Thierry (١٧٩٥-١٨٥٦) ، في كتابه "رسائل عن تاريخ فرنسا" Lettres sur l'histoire de France عام

---

[٦٧] عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٤.

[٦٨] Gobineau and Racism,

[٦٩] جوزيف ماركو ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤.

Joseph Marko. The Law and Politics of Diversity Management: A Neo-institutional Approach, P.2. http://www.uni raz.at/en/print.

[٧٠] Gobineau and Racism, P.1.

١٨٢٧ نظرية عرقية تخص فرنسا قائمة على أساس أن الأخيرة منقسمة على نفسها سياسيا واجتماعيا منذ زمن بعيد ، بسبب تكون الشعب الفرنسي من عرقين هما الغال والفرنجة ، وهم الغزاة الجرمان. وفي الوقت الذي يتواجد فيه الغال بين الفلاحين ، يتواجد الفرنجة في الطبقة الارستقراطية ، وهذه في الحقيقة انعكاس لأفكار المؤرخ الفرنسي بولانفيلرز Henri de Boulainvilliers (١٦٥٨-١٧٢٢)[٧٢] ، غير ان تيري يرى أن الثورة الفرنسية هي امتداد للصراع المزمن بين هذين العرقين الغال أنصار الثورة الفرنسية أميل بطبيعتهم الى مناصرة الحرية والديمقراطية ، أما الفرنجة أكثر ميلا الى حب النظم السلطوية المستبدة[٧٣]. وظهرت بذلك نزعة تقول أن الغال هم مواطنو فرنسة الحقيقيون وعليهم أن يرسلوا أنجال الفرنجة الجرمان الى غاباتهم في ألمانيا[٧٤].

أصدر جوبينو في عام ١٨٧٤ كتابا آخر هو "الثريا" Les Pléiades الذي عارض فيه المساواة الاجتماعية الذي نادى بها دعاة الثورة ، أكد فيه أن الاختلاف العنصري هو في كل أمة بين الارستقراطية والشعب ، فالأول ينحدر من الجنس الآري وهو عرق مسيطرة بحكم طبيعته ومبدع للحضارة والثقافة ، أما الثاني فمنحدر أصلا من العروق الوضيعة التي خضعت للآريين[٧٥].

---

(٧٢) Wikipedia, the free encyclopedia

(٧٣) صادق جعفر الأسود ، علم الاجتماع السياسي أسسه وأبعاده ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص ٥٥٥.

(٧٤) Hames. Op.cit., P. 2.

(٧٥) صادق الأسود ، المصدر السابق ، ص ٥٥٦.

جاء بعد جوبينو المفكر الفرنسي جي لابوج Georges Vacher de Lapouge (١٨٥٤-١٩٣٦) ، والعالم الاحيائي فرانس كالتون Francis Galton (١٨٢٢-١٩١١) صاحب فكرة تحسين النسل ، اللذان قاما بتثبيت نظرية جوبينو بدراسات تجريدية على حجم واشكال الجماجم لدى الأمم[٧٦].

كما ظهرت في فرنسة نظريات تمجد الجنس الصلتي وهو فرع ينبثق من الجنس الأبيض ، بعد انحدار فرنسة أمام ألمانية في ١٨٧١ وتؤكد أن البروس ليسوا آريين وإنما هم مغول ، وترى أن فرنسة أمة صلتية وإن العرق الصلتي أرفع من العرق الجرماني[٧٧].

أما ألمانية فكانت عنصريتها أعنف وأبشع ما عرفه العالم الحديث من عنصرية والمتمثلة بالنازيه القائمة أسسها جميعا على العنصرية. لقد كانت ألمانية بحق كما لو أنها النهر العظيم الذي تصب فيه جميع جداول العنصرية وروافدها في العالم ، وإنها ملتقى الطرق الذي التقت عنده كل النظريات والأفكار وتصارعت هناك مشكلة إعصارا حقيقيا تمثل بالنازية. لقد اقتبست ألمانية جميع نظريات التفوق الاوربي الغربي وجرّمنتهُ وأضافت إليه الشيء الكثير بأقلام فلاسفتها وعلمائها ، وكان من روادها المؤرخ والفيلسوف هينريخ فون ترتشكه Heinrich Gotthard von Treitschke (١٨٣٤-١٨٩٦) الذي يعد من دعاة الامبريالية والعنف والعنصرية ومناهضة السامية في ألمانية ، فحت تأثير التقليد الهيجلي كان يقدس الدولة

Wikipedia, the free encyclopedia

[٧٧] صدقي الاسود ، المصدر السابق ، ص ٥٥٧-٥٥٨.

الأمة[٧٩]. وقد استعمل ترتشكه في نظريته السياسية تعبيري الأمة والدولة بمعنى واحد في كثير من الأحيان ، وأكد أن الدولة قديمة قدم الجنس البشري نفسه ، ولم يستطع تصور قيام الدولة الحديثة إلا على أساس الجنس ، وسخر بفكرة الدولة العالمية . وقال بأن كل انسان في عصره كان يحس بأنه ألماني أو فرنسي أو انكليزي وليس عضوا في اخوية بشرية مشتركة[٨٠]. ويذكر أن لكل شعب الحق في الاعتقاد بأن بعض سمات العقل الإلهي تتمثل فيه بأكمل صورها ، وذهب بأن الأمم لا تزدهر وتتنعش إلا في ظل المنافسة الشديدة التي يندثر فيها الضعيف ويعزز القوي قوته ، وهو بذلك يجسد الصراع الداروينى من أجل البقاء . وكان ذلك يعني عند ترتشكه أن الحرب دائمة وحتمية ، فبدون الحرب لا يمكن أن تبقى الدولة ، فكل الدول الراقية أصلها في الحرب ، وتظل حماية مواطنيها بالقوة المسلحة المهمة الأولى والأساسية لها. والغزو هو الاسلوب الرئيس والوسيلة الأوحد لانقاذ البشرية من الانانية والمادية[٨١].

كانت النزعة العنصرية عند ترتشكه راديكالية فهو لم يبرر أساليب سياسة القوة وحسب ، وإنما أصر على ضرورة الحصول على مستعمرات بأية وسيلة ممكنة ، لقد شعر بحسد مرير نحو بريطانيا لنجاحها في توسيع سيطرتها على ربع الكوكب ، ولكن بدا عليه أحيانا إنه لا يرغب بامتلاك

---

[٧٩] برتراند رسل ، الفلسفة السياسية ، ترجمة فؤاد زكريا ، الكويت ، ١٩٦٣ ، ص ٣٣٨.

[٨٠] فانز ان جابر ، الفكر السياسي الحديث ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠.

[٨١] ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٥١.

مستعمرات ما وراء البحار وبخاصة غانا الأقاليم المتصلة ، وزيد من هذا ، أدولف هتلر بفكرة المجال الحيوي لألمانيا.

كما أدى ترتشكه بدلوه في الفكرة العنصرية العامة القائمة على أساس اللون ، فهو يرى أن الشعوب الصفراء ليست لديها مواهب فنية ، ولا إدراك للحرية السياسية ، فطابع حكوماتها في دولها كان دائما يتسم بالاستبداد ومصادرة الحريات . أما الشعوب السوداء فلم تكن قط صالحة لشيء إلا للعمل ، فمصيرها أن تظل في خدمة الرجل الأبيض ، وهدفها لازدرائه إلى الأبد. والشخص المولد هو كالاسود في كل شيء ، سوى إن لونه أقل دكنة ، واختلاطه بالسود الآخرين دليل على إنه يدرك ذلك[٨١]. وتبعا لفكر ترتشكه فإن التماسك العنصري للأمة يتطلب أيضا تكوينا طبقيا للمجتمع ، إذ أعلن أن طبيعة الدائن العضوية الاجتماعية ذاتها ، تنطوي على اختلافات في المراتب الاجتماعية والحالة الاقتصادية بين أعضائه ، ويجسد ذلك في قوله: "لا يمكن أن تكون هناك حضارة من دون وجود خادمات في المطابخ"[٨٢]. في الحقيقة إن امبريالية القرن العشرين الألمانية استمدت تعاليمها من فلسفة ترتشكه وإن عنصرية هتلر تحمل شبها من عنصريته[٨٣].

ويذكر أن جوبينو الفرنسي تمتع بشعبية كبيرة في ألمانيا أكثر من فرنسا التي هو منها وقيل انه عرف فيها في زمانه ، وانعش وطبع من جديد

---

(٨١) فايز ابو جابر ، المصدر السابق ، ص ٢١٦.

(٨٢) برتراند رسل ، المصدرالسابق ، ص ٣٣٩.

(٨٣) ادوارم بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٣٧.

[illegible] في ١٨٩٠ في [illegible] وحملت اسم جمعية أصدقاء [illegible] Gobineau Society تألفت من عدد من القوميين المتطرفين والمعادين لليهود ، الذين كانوا يتمتعون بقوة سياسية كبيرة بالرغم من قلة عددهم وضآلة كثرة منهم كانوا من المعلمين والمدرسين[٥٩].

ثم ظهر أحد مريدي جوبينو المفكر الألماني الجنسية الإنكليزي الأصل هيوستن ستيوارت تشمبرلن Houston Stewart Chamberlain (١٨٥٥-١٩٢٧) الذي زاد في مديح العنصرية الألمانية الكثير ، وقد نشر في عام ١٨٩٩ عرضا محكما لنظريته العنصرية في كتاب حمل عنوان "أسس القرن التاسع عشر" The Foundations of the Nineteenth Century. وقد أضفى تشمبرلن على لفظ تيتوني المعنى نفسه الذي أضفاه جوبينو على لفظ الآري ، وضم جميع سلالات أوربة الحديثة وكذلك الإغريق والرومان القدامى أصلا تيتونيا ، وإن كان فرد أبدى عبقرية أو أصالة خلال الألفي سنة الماضية ادعى دائما من الجنس التيتوني. وحتى دانتي كان تيتونيا ، لأن له وجها معبرا وجبهة عريضة وعلى الرغم من أن تشمبرلن أقر بأن أكثر أبناء الجنس التيتوني أصالة قد يكونون من ذوي الشعور السوداء ، فإن خياله الشاعري استطاع وصف الإنسان التيتوني المثالي بأنه ذو عينين عظيمتين وبراقتين وجمجمة مستطيلة نتيجة للذهن النشط الذي يعدله التطلع ، وخطوط الجمجمة دائرية تتسع باتجاه الجبهة العريضة"[٦٠]. وقد اعترف بصعوبة الأسس التي بنى عليها هذا الوصف وإن

---

(٥٩) Gobineau and Racism, P.2

(٦٠) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٢٦.

بعض العناصر الدخيلة مثل اليهود ، يمكن أن يكون لأفرادها هذه الصفات ذاتها ، وقال "هناك بعض اليهود لا يمكن تمييزهم عن الالمان النيتون ، ولكن من الممكن معرفة اليهودي بأنه الرجل الذي إذا دخل حجرة بها طفل ألماني فإن الطفل ينفجر بالبكاء"[٨٦]. وهو بذلك ساعد على إذكاء الحركة اللاسامية لدى الألمان وحذر من خطر الشعوب السامية على نقاء الجنس الالماني الآري ووصفه بصراع سوف يتطور الى معركة بين الخير والشر وبذلك حاول تقعيد الحرب العنصرية على اسس اخلاقية[٨٧]. وكان تشمبرلن يقول إن الاجناس البشرية تختلف باختلاف طبيعتها واستغلالها لمواهب أفرادها ، وإن الالمان تميزوا بموهبتهم الموسيقية[٨٨]. وقد ميز تشمبرلن النيتون فبدلا من اعتبارهم فرعا عرقيا ، كما يعرض الكتاب من قبل ، عدهم أمة هي الأمة الألمانية[٨٩].

تبنى الألمان نظريات تشمبرلن لأنها تبرر مطامعهم التوسعية في سيادة العالم ، وقربه القيصر وليام الثاني وقلده وسام الصليب الحديدي ، وأمر بزيادة توزيع كتابه نظرا لتأثيره الكبير فيه . وقد التقى تشمبرلن بأدولف هتلر في ١٩٢٣ قبل كتابه لمؤلفه الشهير "كفاحي" Mein Kampf

---

محمد عبد المعز نصر . فلسفة السياسة عند الالمان ، الاسكندرية . ١٩٧١ . ص١٤٠.

Gobineau and Racism. P.2.

Ashley Montagu. Man's Most Dangerous Myth: The Fallacy of Race. New York. 1945. P. 76.

ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٦١.

بوقت قليل. واتخذ النازيون من أفكاره الكثير من أسس عقيدتهم بعد أن أجروا عليها بعض التعديلات[٩٠].

من هذا يتضح اهتمام رجال الفكر الالماني بإبراز أهمية العنصر الآري وفضائله على المدنية الانسانية ، وحقه في السيادة ، ويمكن إجمال آرائهم في هذا الخصوص في ان العنصر الاري هو أقدر العناصر البيضاء على خلق المدنيات وإن بقاء هذا العنصر نقيا من اندماج العناصر الأخرى هو الشرط الأساسي لتقدمه[٩١]. وقد تطورت النظريات العرقية في أواخر القرن التاسع عشر على يد جوبينو وتشامبرلن ، وعلى الرغم من تنازل بعض المفكرين عن آرائهم ، من أمثال ماكس مولر Friedrich Max Müller (١٨٢٣-١٩٠٠) الذي ابتدع العنصر الآري في ١٨٥٣ ، الذي أعلن بعد اربعين سنة أنه لم يكن يقصد جنسا آريا ، وإنما فئات كانت تتكلم اللغة الآرية ، لكن نفيه آراءه الأولى لم يفد كثيرا ، إذ كانت أسطورة الجنس قد تأصلت في كثير من المؤلفات والأذهان[٩٢].

وقد ذهب مفكرو النازية بالبحث عن كل ما يؤيد نظريتهم في التفوق العنصري Racial Supremacy ، فتمسكوا بنظرية جديدة تنسب العنصر الالماني إلى العنصر النورديكى الشمالي Nordic Race الذي تشتهر قبائله

The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 5, P. 466.

[٩٠] عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٧.

[٩١] احمد خاكي ، فلسفة القومية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣٣.

لم فيل بالشجاعة والاقدام[٩٣]. وقد ارجع مفكرو النازية اسباب التكتات التي حلت بالشعب الالماني ، إلى أسباب تتعلق بإغفاله خصائصه الموروثة عن أسلافه ، وإنه إذا ما اقتنع الشعب الالماني بأصله المجيد وعاد إلى التمتع بخصائص اسلافه ، فإن ألمانية ستعود إلى تبوء مكانتها الطبيعية بين الدول العظمى[٩٤] وجعلت النازية الجنس الجرماني أرقى الاجناس البشرية من بين الاجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، أما الطبقات السفلى وصفوهم بالاجناس الفعلة Hilfenvolk وهم الملونون وكلا جُعل مراتب ودرجات[٩٥]. أما الجنس الهدام وهم اليهود الذين يحملون صفات مغايرة تماما للجنس الآري وهم على طرفي نقيض ، فاليهودي لا يقبل التضحية بنفسه في سبيل بلده أطلاقا ، ولا يتمتع بالمثالية ، وهم متفقون عندما يواجهون عدوا مشترك وانهم إذا عاشوا في عالم بمفردهم فسيأكل بعضهم بعضا[٩٦].

لقد استقاءت النازية من اسطورة الأعراق واتخذتها ذريعة لاضطهاد الاجناس غير الآرية ، وزعم مفكرو النازية إن الدم الآري أو النورديكي يجب أن يجري في عروق الألماني[٩٧]. وربما من المفيد أن نذكر هنا وجهة النظر

---

(٩٣) Beals L., An Introdection to Anthropology. New York. 1959. P. 127.

(٩٤) محمد عبد المعز ، المصدر السابق ، ص ١٤١.

(٩٥) جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ص ١٢٠.

(٩٦) محمد كمال الدسوقي وعبد الوهاب عبد الرزاق سلمان ، الصهيونية والنازية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٧٥-٧٦.

(٩٧) احمد حاكي ، المصدر السابق ، ص ٢٣.

نازية حول قضية نقاء الدم والعنصر حيث اصبحت هي فترة معينة قضية مسلم بصحتها "أن اتصالا واحدا بين يهودي وامرأة آرية كاف لتسميم دمها إلى الأبد ، فإلى جانب الأح الغريب او الاجنبي alien albumen الذي يمتص جزئيا او كليا من قبل جسد الأنثى دخل بذلك دورتها الدموية ، وامتصت معه الروح العربية alien soul ، وهكذا تلوث جسدها وروحها ، ولن تتمكن أبدا مدى حياتها إنجاب اطفال آريين أنقياء"[٩٩].

كان من بين ابرز مفكري النازية وقادتها هما الفريد روزنبرغ Alfred Ernst Rosenberg (١٨٩٣-١٩٤٦) ، وادولف هتلر Adcif Hitler (١٨٨٩-١٩٤٥) . لقد أعطى روزنبرغ النظرية العنصرية النازية شكلها النهائي. وكان كتابه "اسطورة القرن العشرين" عباره عن احاديث مفصلة متعجرفة عن العرق ، وقد تأثر بكتاب "أسس القرن التاسع عشر" لتشمبرلن. وتعد فكرته عن العنصرية خليطا من آراء تشمبرلن وجوبينو ونتشه وترتشكه[٩٩]. بدأ روزنبرغ نظريته في ما أسماه سر الدم ، فالتاريخ ليس صراعا بين طبقة ضد طبقة لكنه بين دم ضد دم ، وعنصر ضد عنصر ، وشعب ضد شعب . وذكر "إن الروح هي الجزء الداخلي للعنصر ، والعنصر هو الإطار الخارجي للروح ، لذلك تكون الصورة النهائية لعالمنا اليوم هي عالم الروح العنصرية" وادعى إن هناك "ديانة جديدة ستظهر في

---

(٩٩) Philip W. Cummings, Racism, The Encyclopedia of Philosophy, Vol.7, New York, 1967, P. 60.

(٩٩) John Gunther, Inside Europe, London 1938, P. 106.

الغريب ... هي استحواذ الدم على كل الاجزاء القيمة في الانسان ... انها دماثة تفوق الدم النورديكي". وطالب الشعوب النوردیكية باتخاذ مثلها العليا في الشرف والعمل ونبذ العاطفة[١٠٠]. وهاجم روزنبرغ المسيحية والكنيسة الكاثوليكية حيث يقول "إن فكرة الشرف الوطني هي لنا بداية تفكيرنا وأفعالنا ونهايته ... ولن تسمح هذه الفكرة لأية فكرة أخرى ، سواء الحب المسيحي ، أو الانسانية الماسونية ، أو الفلسفة الرومانية بالوقوف أمامها"[١٠١]. ونادى بالتحالف مع بريطانيا وقال إن رسالة البلدين هي اقتسام العالم فيما بينهما ، فالدم النورديكي في شعبها يؤكد تفوقهما ويبيح لهما ذلك[١٠٢]. وقد صور روزنبرغ شعوب العنصر النورديكي ومستقبلها بقوله "إن دول اوربة كلها قد أسست وحفظت بواسطة الانسان النورديكي ، وإن اندثار صفاته تعني ضعف اوربا ... ولكي يمكن استعادة قوة اوربا ، يجب اتحاد القوى النوردیكية فيها"[١٠٣]. ومعنى ذلك اتحاد ألمانية وبريطانية والدول الاسكندنافية . ويؤكد أن "مستقبل اوربة مرهون بالحفاظ على العنصر النورديكي ووحدته... ليكون قلب الامة النوردیكية ألمانيا" تدافع بريطانية من الغرب والبحار ... والدول الاسكندنافية من الشمال والشمال الشرقي"[١٠٤].

---

(١٠٠) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٩-٤٠.

(١٠١) Roymond Murphy, National Socialism. Washington. 1943. P. 175.

(١٠٢) ادوارم بيرنر ، المصدر السابق ، ص ١٧١.

(١٠٣) Murphy Op.cit., P. 179.

(١٠٤) نقلا عن : عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٤١.

لقد اتفق كل من روزنبرغ وهتلر على اعتبار أن الشعب الألماني هو المحتوي على أكبر نسبة من العنصر النوردیکي[١٠٠] ، الذي يتميز بمواهب مبدعة وليدة مواهبه العقلية ، وأكبر دليل على ذلك بنظره ، هو بقاؤه محافظا على طبائعه وخصائصه على الرغم من تعرضه قبل ألفي سنة لظروف قاسية ، ولدت لديه حب البقاء والصراع من أجله ، إنه الشعب الذي بالفعل له الحق في أن يسمي نفسه الشعب المختار[١٠١].

في الوقت الذي اقتصرت فيه آراء فلاسفة ما قبل النازية على محاولة التبصير بأهمية العنصر ، ونحا بعضهم منحى عن عدم تكافؤ العروق البشرية (باثولوجيا) [١٠٢] ، نما ينعكس من تباين حضاري إذ يوجد توافق بين القدم والعرق الأبيض وبين التأخر والعروق الملونة[١٠٣] ، فإن مفكري النازية قد اتخذوا من العنصر اساسا لرسم هيكل المذهبية النازية في كل ما توخت له النظرة النازية من آراء عن الفرد والمجتمع والدين والدولة ، وإن نظرية التفوق العنصري واستخدامه بين الجنس الواحد قد خدمت انتشار النازية في المانية واكسبها طابعا مميزا عن دعوات الأحزاب الأخرى ، وجذبت الجمهور الذين اطربهم الكلام على المجد الآري ورسالة الشعب الألماني المورونة في السيطرة على العالم[١٠٤].

---

[١٠٠] المصدر نفسه ، ص ٤٢.

[١٠١] ادولف هتلر ، كفاحي ، ترجمة لويس الحاج ، بيروت ، ص ١٧٠.

[١٠٢] ستيفن سوبنكار ، خلاصة الفكر السياسي ، ترجمة مجيد عبد الله ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ٢٨.

[١٠٣] صادق الاسود ، المصدر السابق ، ص ٥٥٤.

[١٠٤] ستيفن سوبنكار ، المصدر السابق ، ص ٣٠.

لقد استغلت النازية مذهب نيتشه في الصفوة الفاضلة بين أفراد المجتمع لتنادي بأن الجنس الآري له من صفات سيادة السوبرمان ما يؤهله للسيطرة على غيره من الأجناس ، حيث صورت النازية مذهب نيتشه على أنه تطاحن بين الافراد لبلوغ الذرى ، وهو مذهب يمايز بين الأمم ليسود أقواها إرادة ، وهي بالتأكيد الأمة الألمانية. والنازية بهذا مزجت شوفينية ترتشكه العنصرية بفلسفة نيتشه الفردية ، وجعلت من بربرية نيتشه بربرية سياسية أخرجتها من معناها الأصلي[١١٠]. وإن مفهوم الفكرة النازية عن الدم والارض يعكس بدائية لا تتفق مع النمط التقليدي الامبريالي. وبهذا لم تترك النظريات العنصرية أثرا ذا مغزى في الفكرة النازية الوحشية إلا في حدود اعتناقها الداروينية الاجتماعية التي تمجد البقاء للأصلح الذي هو الجنس الآري وحقه في السيادة العالمية[١١١].

لقد أذكت النازية في الشعب الالماني النزعة العنصرية من خلال زرع العصبية للجنس الآري ، وأخذت تمجد له خصائصه وصفاته الموروثة ، ثم دفعته للاعتقاد بأهمية تفوق هذا العرق على غيره من الاعراق ، مما يؤهله السيادة عليها[١١٢].

يذكر هتلر في كتابه "كفاحي" ، "إن العلم (والتكنيك) يكاد يكون كله ثمرة النشاط الآري الخلاق ، وهذا الواقع يجيز لنا الاستنتاج بحق أن الآريين قد أسسوا في الماضي مدنية متفوقة". لقد كان الآري في نظره "ولا يزال

---

[١١٠] لويس عوض ، دراسات في الأدب والمذاهب ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٤٢-١٤٣.

[١١١] ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨-١٦٩.

[١١٢] محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ، ص ٧٤.

لمشعل الإلهي الذي يضيء السبل أمام البشر ، فشرارات العبقرية الإنسانية انبعثت دائما من جبينه المشرق ، وهو الذي قاد الانسان على دروب المعرفة ، ودله على السبيل التي تجعل منه سيد الكائنات ... فإذا توارى الاري يغشى البسيطة ظلام دامس وتتلاشى الحضارة البشرية ويستحيل العالم قفرا " [١١٣]. وهذا المثال وحده كاف لإظهار عواقب اختلاط الاعراق . فالجرماني الذي حافظ على دمه نقيا ، اضحى سيد القارة الأمريكية ، وسيظل هذا شأنه ، ما دام محافظا على طابعه الخاص. ومجمل القول إن كل اختلاط بين الاجناس يفضي إلى تدني مستوى الجنس المتفوق ، وتأخر مادي وروحي يؤدي في النهاية إلى التفسخ والانحلال . واختلاط كهذا يشكل تحديا لإرادة الخالق وتحديا لمنطق الطبيعة . ويستطرد هتلر "المدنية هي نتاج النشاط الخلاق لشعوب معدودة ، وربما كانت في الأصل عرق واحد ، وعلى هذه الشعوب يتوقف استمرار الحضارة ، فإذا ادركها التفسخ والانحلال ، لحق بها إلى القبر كل ما هو رائع وجميل على هذه الارض . وقد انهارت الحضارات الكبرى في الماضي ، لأن العرق الخلاق الذي أوجدها قد ذهب ضحية سريان السم في دمه ، لذا يجب الحفاظ على الانسان الذي أوجد الحضارة ، وهذا المبدأ مرتبط بحق الأصلح والأقوى في التفوق والسيادة " [١١٤]. ويذكر "اذا صنفنا البشر الى ثلاث فئات : الفئة الاولى الى خلقت الحضارة ، والثانية التي حافظت عليها ، والثالثة التي قوضت دعائمها ، فاننا نجد أن الاري هو الممثل الوحيد للفئة الاولى ، فهو الذي

---

[١١٣] هتلر ، المصدر السابق ، ص ١٦٤.

[١١٤] المصدر نفسه ، ص ١٦٣.

... الشعب الألماني ... ويرفض تصنيفه على هذه الخلفية العنصرية ، وسوف تأتي اللحظة التي سوف يقف كل شرق على طريقته الخاصة"[١١٥] . لقد وزعت النازية أجناس البشر الى مراتب فوضعت في الطبقة العليا الجرمان من اهل الرايخ ، يليهم الجرمان الذين لا يعيشون في الرايخ الالماني ، ويأتي بعدهم النورديون الخلص النرويج والسويد ، ثم الانجلوسكسون والنورمانديين . أما الطبقة السفلى فقد وضعت النازية الروح فيها ثم وزعت بقية الاجناس فيما بين هاتين المنزلتين[١١٦].

لقد أراد النازيون ايجاد نظام جديد في اوربة تتحكم فيه النازية وتستغل جميع مواردها لمصلحة المانية ، فيغدوا أهلها عبيدا أرقاء لرأس الدولة الالمانية السيد ، وتباد منها العناصر غير المرغوبه فيها ، على مبدأ نقاء العرق وتحسين النسل Eugenics ، وان كانوا من البلد نفسه ، إذ لا يحق لغير أعضاء الأمة أن يكونوا مواطنين في الدولة ، ولا يحق لغير الذين ينحدرون من دم ألماني مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء في الأمة[١١٧]، وفي طليعتهم الساميون (اليهود) والكثير من سلاف الشرق . وكل أولئك ليس من حقهم العيش إلا إذا كانت هناك حاجة إلى بعضهم ، كما أراد هتلر طمس معالم كل من البولنديين والسلاف[١١٨]. ويقول خلق البولنديون

---

[١١٥] المصدر نفسه ، ص ٩٩.

[١١٦] محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ، ص ٧٥-٧٦.

[١١٧] احمد عبد الله ابراهيم الزعبي ، العنصرية اليهودية واثارها ، ص ٥٢.

[١١٨] وليام شرر ، تاريخ المانيا الهتلرية نشأة وسقوط الرايخ الثالث ، ترجمة خيري حماد ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ١٢

[illegible] للقيام بالاعمال الدنيا ، وانهم لم يكن لهم يوم [illegible] واحد واحد [illegible] السلاف[١١٩]. أما السلاف فيصور بعض المؤرخين الالمان على أنهم ليسوا محاربين حقيقيين بل إنهم يولدون عبيدا ، ويدللون على ذلك بإيراد اسم هذه القومية (Slav) الذي يقولون أنه يعني عبد (Slave)[١٢٠] ، فلا يستطيع السلافي قبول معركة على ميدان مفتوح ، ولا يملك دروعا ، ويفضل القتال إذا هو اجبر عليه بالرماح في اعماق الغابات[١٢١]. إن الهدف الاستعماري كان بصورة واضحة وراء هذا الاستعلاء على القوميتين البولندية والسلافية من العرق الأبيض ، فهاتان القوميتان تقطنان في الاراضي المجاورة لالمانية إلى الشرق والجنوب الشرقي التي عدها الولف هتلر المجال الحيوي لالمانية للتوسع فيه ، ومن اجل ايجاد ذريعة للاستحواذ على اوطانهم تم ابتداع هذه الفكرة .

---

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ١٤.

(١٢٠) سلاف Slave بالإنكليزية تعني الرقيق ، العبد ، الأمة ، التجارة؛ ضد حر. وبالفرنسية Esclave تعني العبد ، ينظر قاموس المنهل ، بيروت: دار الآداب. وبالعربية صقالبة من الكلمة الاسبانية Esclavo كان يطلق أول الأمر على الرقيق والأسرى الذين يقبض عليهم من الجرمان ، وغيرهم من القبائل السلافية . ثم أصبح هذا الاسم يطلق فيما بعد على كل الأجانب الذين يباعون ، وفيهم الرقيق الاسباني ، ومن على شاكلتهم.

ينظر : الأرقم الزعبي ، قضية الوسنة والهرسك : دراسة تاريخية وانسانية ، بيروت : دار النفائس ، ١٩٩٣ ، ص ١٤.

(١٢١) S.,Pribichevich, Macedonia its People and History, The Pennsylvania State University Press. 1982, Op. cit., p. 66.

لا يمكننا هنا إغفال أن مسألة تحسين النسل المذكورة آنفا شملت ابناء البلد نفسه وطبقت في المانيا بكل ما في الكلمة من معنى قاس ، حيث مرر قانون في الرابع عشر من تموز ١٩٣٣ عرف باسم منع تناسل المنقوصين جينيا Prevention of Genetically Defective Progeny والذي يشرعن عملية إعقام الاشخاص اجباريا ممن يعانون من امراض ادعي بأنها تحمل صفة وراثية مثل امراض العوق الذهني ، الشيزوفرينيا ، والجنون ، والعمى ، والصمم ، وإدمان الكحول ، والعوق الجسدي . استغل القانون لتشجيع نمو الجنس الاري النقي من خلال إعقام الاشخاص الذين سقطوا تحت جماعة المنقوصين جينيا. وفي خلال سنتين من تاريخ اقرار القانون أعقم واحد بالمائة من المواطنين تتراوح اعمارهم ما بين ١٧ و ٢٤ عاما ، وتمكنت الحكومة النازية من اجراء عمليات تعقيم اجباري لحوالي ٤٠٠ الف فرد جزءا من هذا البرنامج . وابتداءً من نحو شهر آذار ١٩٤١ إلى نحو شهر كانون الثاني ١٩٤٥ أجريت تجارب عمليات الاعقام في منطقة أوشويتز ومناطق أخرى تحت اشراف الدكتور كارل كلاوبيرك ، كان الهدف من تلك التجارب تطوير وسائل إعقام حديثة لأجرائها على ملايين الناس في اقصر وقت وأدنى جهد. والنتيجة النهائية لتلك التجارب كان الخيار المفضل في النهاية تعريض الشخص لفترة معينة لكمية معينة من اشعة اكس مما يدمر قابلية الانسان على انتاج سواء حيامن او بيوض. كانت هذه العملية تجرى عن طريق التضليل . حيث يجلب الاشخاص الذين يراد اجراء عملية الاعقام لهم ويوضعون في غرفة الاشعة ويطلب منهم ملء استمارة معلومات وفي غضون ذلك يتم تعريضهم للاشعة من دون علمهم في

عملية لا تستغرق اكثر من ثلاث دقائق فيتحولون إلى اشخاص عقيمين تماما سواء كانوا ذكورا ام إناث . وقد عانى الكثير منهم فيما بعد من حروق اشعاعية خطيرة [١٢٢].

استكملت النازية نظريتها العنصرية ، من خلال الدعوة إلى اللاسامية ، وهو المبدأ المناهض لاندماج العنصر السامي في العناصر الآرية من أجل الحفاظ على خصائصها الموروثة . هدفت بالدرجة الأساسية إلى توجيه أنظار الألمان إلى عدو مشترك ، ليقتنعوا بخطورته على كيانهم ومستقبلهم ، من خلال إرجاع كل النكسات الالمانية إلى اختلاط الجنس الآري مع الجنس السامي وبالخصوص من معتنقي الديانة اليهودية[١٢٣]. ويقول ادولف هتلر "إذا تخلى الآري عن نقاء دمه ، فقد تبعا لذلك إقامته في الفردوس الذي أقامه لنفسه ، وغدا غارقا في مزيج عنصري ، ثم فقد تدريجيا قوته الذهنية الخلاقة " [١٢٤].

لقد بنت النازية على الدعوة اللاسامية كيانها ، حيث بدأت تطارد معارضيها بحجة البدء في تنفيذ نظرية اللاسامية ، ثم كست اللاسامية الدعوة الامبريالية النازية ، حيث برزت الغزو والاحتلال بالقضاء على اليهودية

---

[١٢٢] http:// en. Wikipedia. Org /wiki/ Nazi human experimentation cite.

[١٢٣] Morgentau. Op. cit., P. 21.

[١٢٤] رجاء جارودي ، الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية ، ترجمة نزار الفيـ القاهـرة ، ١٩٩٦ ، ص ٣١.

العالمية . وكان هناك شرط في عرف القادة النازيين هو إخلاء أوربا كلها من اليهود[١٢٥].

إن الحركة اللاسامية لم تكن من بنات أفكار هتلر ، فقد ظهرت اللاسامية في آراء جوبينو الذي ذكر بأن هناك بعض الاجناس الدخيلة التي ترمي إلى الاندماج مع العنصر الآري ، رغبة منها في اكتساب صفاته الرائدة ، وإكسابه خصائصها الضعيفة ، وفي مقدمتها اليهود الذين يجب توخي الحذر منهم[١٢٦]. وارجع تشمبرلين اضمحلال المانية وانقسامها إلى التسلل اليهودي فسار على المنوال نفسه محذرا من اليهود . وقد ظهرت هذه الفكرة في كتابات بلومنباخ الذي نسب لليهود دورا كبيرا في تفرق المجتمع الألماني .

وصفت اللاسامية في المانيا بوجه نشأت فيها طائفة تنبأ من السيد المسيح عيسى كونه من بني اسرائيل ويقول احدهم "لأي شيء ندرس اولادنا تاريخ أمة اجنبية ، ولماذا نقص عليهم قصص ابراهيم واسحاق؟ ينبغي ان يكون إلهنا ايضا المانيا ". فظهرت في ألمانيا نزعة وثنية ترمي الى إحياء الآلهة القومية القديمة ، التي كان يعبدها الشعب الجرماني في عهده الوثني[١٢٨].

---

(١٢٥) وليم شرر ، المصدر السابق ، ص ١٣؛ رجاء حارودي ، المصدر السابق ، ص ٣١.

(١٢٦) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٤٠.

(١٢٧) المصدر نفسه ، ص ٤٨.

(١٢٨) احمد الزعبي ، المصدر السابق ، ص ٥٢؛ ابو الحسن علي الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٢٦.

ويبدو إن النازية في دعواها إلى اللاسامية قد خدمت الحركة الصهيونية إذ ساعدتها في اقناع اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، كما أن الرابط بين الصهيونية والنازية كبير ، فقد كان آباء النازية السياسيون والمفكرون يشاركون الصهيونية فذلكاتهم ، ففكرة الجنس المختار عند النازية لم تكن تختلف عن فكرته عند الصهيونية إلا في هوية هذا الجنس ، أهو الجنس الآري أم اليهودي ، ولم يكن الصهاينة يستشعرون إية كراهية للنازية وسياساتها وممارساتها اللاساميه ، وقد طلب بعضهم ذات مرة إيضاح أهداف الحركة الصهيونية ومضامينها لأدولف هتلر الذي لم يكونوا يرون فيه معاديا للصهيونية[٢٢]. حتى إن أوامر هتلر التي صدرت في ربيع ١٩٤١ وعرفت بـ"الحل النهائي" التي تتعلق بطرد اليهود نهائيا من اوربة لم تكن تعدو عن كونها أوامر شفهية[٢٣]. والتشابه بين طبيعة الصهيونية والنازية واضح جدا ، فقد نادت الصهيونية بالتطهير العرقي النابع من مبدأ النقاء العرقي الي جانب امتزاج الدم اليهودي بأي "دم دنس" من دماء الآخرين[٢٤].

وهناك حركة أخرى في اوربة حاولت تبني بعض المفاهيم العنصرية وهي الحركة الفاشية ، فقد حاول موسوليني Benito Mussolini (١٨٨٣-١٩٤٥) تبني بعض الأفكار العنصرية ، بإيحاء من هتلر في المدة

---

[٢٢] ريجينا الشريف ، الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٩.

رجاء جارودي ، المصدر السابق ، ص ١١.

[٢٣] Arnold Toynbee, Op.cit., P. 51.

(١٩٣٦-١٩٤٥) ، إذ نسخ من دون مبرر اسوأ مظاهر النازية[١٣٢]. وظن موسوليني أن هناك فائدة من عدم المساواة بين الاجناس البشرية ، التي لا يمكن إغفالها أبدا ، واعتقد ان الحرب هي التي تضفي على الكائنات الادمية نبلا وسموا[١٣٣]. على الرغم من ذلك فإن الفاشية لم تكن لها نزعة عنصرية واضحة المعالم ولم يكن لها أساس عنصري ، ومع أن موسوليني قد أصدر بعض القرارات ضد اليهود بعد تكوين محور روما برلين ١٩٣٦ لكن معظمها لم ينفذ[١٣٤].

اثبتت الدراسات (الانثروبولوجية) خلل النظريات العرقية ، وإن لا توجد أسس علمية للتمايز بين الاجناس البشرية بل لا توجد أجناس اصلا . وانما وجدت بعض الفروق نتيجة طفرات وراثية ، وطبيعة الانسان ذاته والى الظروف الاجتماعية والبيئية وغير ذلك من الاحوال المعيشية للانسان حتى أن العلم اثبت ان المجتمعات المغلقة التي لا تسمح بالزواج بالغرباء من خارج نطاقها يكون نسلها اضعف بمائتي من تشوهات خلقية وتفتك به امراض مستعصية .

من السهل في يومنا هذا للمثقف أن يفند تلك النظريات العنصرية التي اتصفت في بعض الاحيان بالسذاجة ، بلا كبير عناء ، ومن دون الرجوع إلى آخر ما توصل إليه العلم في حقل الجينات التي اثبتت تتطابق الجينات البشرية تطابقا تاما تواما ، وليس كما وصف علماء القرن التاسع

---

[١٣٢] جون كلارك اسمز ، نظام الحكم في جمهورية ايطاليا ، ترجمة احمد نجيب ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧٥.

[١٣٣] بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨.

[١٣٤] المصدر نفسه ، ص ١٧٤.

عشر وشبه الجينات البشرية بالجينات الحيوانية التي تختلف بالطبع بين فصيلة وأخرى ، يفندها عن طريق المقارنة فقط بين اوربة وبقية قارات العالم والحضارات التي ظهرت على مر الزمان في مختلف بقاع الارض حتى امريكة التي وصفت بالعالم الجديد الذي لم يكن يعلم عن الانسان الاوربي شيئا . ولو أحصينا حضارات اوربة فلا تتعدى الثلاث حضارات الاغريق والرومان والحضارة الامبريالية الجديدة ، وحتى تلك الحضارتان القديمتان لم تكونا في حقيقتهما حضارة جرمانية او انكلوسكسونية بل إن هذين العرقين كانا هما القبائل البربرية التي حطمت تلك الحضارتين . ولا يخفى للعيان إن غاية النظريات العنصرية الاولى والاخيرة هي تهيئة الجو الفكري المناسب للحركة الاستعمارية في ما وراء البحار او داخل أوربة نفسها.